الله في الحياة

تتباين العلوم بمادتها ومقدماتها وبالمعاني التي تنتهي اليها رغم الاسلوب العلمي الذي يوحد بينها ورغم نزعتها المادية الى الحقيقة الصرفة . فالله فكرة الله ليس وقفاً على علم دون آخر ولكل علم رسالته الخاصة في الله ووصفه الخاص لتلك الناحية من الله التي يتصل بها . فلا بد من العرض لجميع العلوم سعياً وراء تكوين فكرة نزيهة غير مشوهة عن رسالة العلم الحديث في الله وطبيعته

وقد تناولنا في مقالين سابقين الوجهة الرئيسية من رسالة العلم الطبيعي في الله . وهي تتلخص في اثبات الحرية والابداع في اقصى تركيب الكون ، اي في تصرف الكتروناته : كما انها تعزو الى الله التفكير الرياضي الخالص لانها تدهش اذ تلمح الرياضيات متغلغلة في جميع ما طرقه العلم بعد من جوانب هذا الكون . واذا وقرنا ان الرياضيات ترمز الى منتهى التقدرية والضبط اتضح لنا ان الطبيعيات الحديثة تنتهي فيما يختص بالله الى اسناد صفتين في الظاهر متناقضتين اليه ، اعني صفة الحرية وصفة التقدرية . اما كيف السبيل الى التوفيق بين هاتين الصفتين في نفس الرسالة الواحدة فلا اخال احداً يستطيع الآن التكهن به . لكننا نعتقد ان هذا التناقض ظاهري اكثر منه حقيقي ، وزائل اكثر منه دائم ، وناشئ من حالة العلم الحالية غير الكاملة ، ومن حداثة هذا الضرب من التفكير عن الله ، ومن يقيننا بان الفكرة الكاملة لله لا تستخرج من جانب واحد من جوانب النشاط البشري بل تنبع في انسجام رسالات الحياة جميعاً — لنا من كل هذا ما يجعلنا نؤمل ونعتقد اننا انما نحن الآن في طور فطري لحركة لن تلبث ان ترقى مع الزمن الى درجات الكمال

إن الكمال النظري لا يهبط بغتة من عليين بل يرتسم بحروف تختلف وضوحاً وغموضاً في افق النشاط البشري المتواصل . ومن الجهل الفاضح ان ننتظر كمالاً جاهزاً من حركة ذهنية هي بعدُ في الطور الاول الشديد المرونة . ولا تطلب الحقيقة التاريخية منا في هذه الحال الا ان ننفذ ببصيرتنا الى ما تنطوي عليه هذه الحركة وقد تنكشف عنهُ . من اجل هذا لا يقلقنا كثيراً ان نرى في رسالة العلوم الطبيعية في الله شيئاً من التناقض والاثرة والعيب ، بل نحن نحوط هذه الرسالة صبراً واطمئناناً حتى تتكامل وتتفتح عن جميع متضمناتها . ويقيننا ان هذا التكامل قريب الحدوث

وهناك جانب ثان من النشاط الذهني الحديث غير جانب العلوم الطبيعية يحاول اصحابهُ بطريقتهم الفذة ان يستثنوا معنىً من معانيه يستطيعون اسناده الى الله . هذا هو جانب العلوم

الحيوية . فهذه العلوم لها رسالة خاصة في الله . وفي هذا المقال نحاول عرض هذه الرسالة وتحديدها

عند ما نشأت الروح الحديثة في علوم الاحياء التفت نفسها تجاه تراث ضخم من العقيدة والنظرية ، وسرعان ما ايقنت انها تتعارض اسلوباً ونظرة مع هذا التراث الهائل ، فاخذت على عاتقها بادئ ذي بدء نقد هذه الكتلة النظرية من اساساتها . وحركة النقد هذه بلغت اشدها في القرن التاسع العشر ولا تزال نشطة الى يومنا هذا

اما العيب الكبير الذي رأته الحركة العلمية الحديثة في علوم الاحياء العتيقة فهو أن هذه ترتكز في عقائدها وتصريحاتها على ثلاثة فروض يكفيها جميعاً قليل من النقد الحديث حتى تكشف عن اسس جد واهنة . اولاً إن جل ما يُطلب الى العالم في دراسته الاحياء ان يصنفها جميعاً فيضع كل حي في بابه الخاص به . ثانياً ان الاحياء موجودات ثابتة ثبوت عناصر الكيمياء لا سبيل لاي تغيير اليها . ثالثاً ان الشرط الأوحد لصحة نظرية حيوية ان يقتنع التفكير الخالص بانها نظرية معقولة فيجب لذلك ان يؤيدها الواقع

اذا قابلنا هذه الفروض الثلاثة بالروح العلمية السائدة في علوم الاحياء الحالية الفيناها اشد ما تكون مناقضة لهذه الروح . فالتصنيف لم تعد له القيمة التي تخيلها العلم العتيق وهو الآن على اية حال يستمد الهامه من مبادئ غير تلك التي تحكمت في التبويب السالف . فمثلاً كان التصنيف السابق يبني معظم نتائجه على التشابه في التركيب دون اعتبار وافر لوظائف الاعضاء اما الآن فالوظيفة هي اهم ما يسترشد به في التصنيف الحديث . كذلك البيئة الخارجية لم يعرها التصنيف القديم انتباهاً يذكر بينا هي الآن بتفاعلها مع الكائن الحي الفكرة الاساسية لمعنى كلمة «حي» . هكذا الامر فيما يختص بقيمة التصنيف العامة لأن العلم عاد لا يرى كما كان يرى فيما مضى قيمة كبرى لمجرد تبويب حي ما في صنف او جنس خاص لانه شغل عن كل هذا باستيعاب تصرف هذا الحي وتفاعله مع محيطه وطريقة نموه والتعاون البديع بين اعضائه ومجموعة العوامل التي تؤثر في حياته . وما لم تفهم جميع هذه الاوجه حق الفهم سقط ما توخاه العلم من قيمة التصنيف لأن هذا يصبح اذ ذاك تصنيفاً تعسفياً لا يستند الا على الوجهة التركيبية الجامدة من الحي ، وهذه الوجهة مهما ظهرت هامة بحد ذاتها لا تعدو في الواقع عن ان تكون احدى اوجه الحي الكثيرة . فالنظرة الجديدة للحي ترى في تركيبه وسيلة لا غير ترمي الى ابعد منها ، اي الى استكمال ذاك التوازن العضوي بينه وبين بيئته الذي لا يتكشف معناه كاملاً الا باعتبار الحي كاملاً متواصلاً منذ تكوينه الى نهايته ، مندمجاً كذلك في تاريخ سلالته ، موحداً في النهاية في تاريخ الحياة العام

والدعامة الثانية للتفكير العضوي العتيق هي ان الاحياء مخلوقات ثابتة لم يطرأ عليها تحول في التركيب والوظيفة منذ خلقها . ويكفي بصدد هذا المبدأ ان نقول ان النظرة الحديثة ترمي

الى حكمه تماماً اي الى الايمان الوثيق بأن الاحياء كسواها من الموجودات قابلة للتطور في تركيبها وتصرفها وانها قد تطوَّرت فعلاً خلال تاريخها تبعاً لمقتضيات تفاعلها بيئتها . هذه نظرية التطور العضوي، والعالم الذي يرى من الشجاعة المنطقية بعد دراسته الاحياء ألاَّ يؤمن بها غير معروف لحسن الحظ . ولا اعرف وسيلة لتعريف القارىء مقام هذه النظرية افضل من احالته الى المقالة النفيسة في صدر مقتطف يونيو الماضي عن « داروِن ومذهبه »

والمبدأ الثالث الذي تضمنتهُ النظرة الحيوية العتيقة هو مسببة مصائب التفكير القديم على اطلاقه وهو لا يزال الى يومنا هذا متحكماً في تفكير فريق غير قليل من علماء الاحياء . هذا المبدأ هو الخلط بين الحقيقة الواقعية والكمال النظري . فكان يكفي لبرهان وقوع حقيقة ان تتمكن من اظهار هذه الحقيقة وهي جزء صحيح في تركيب منطقي . فمثلاً نود ان نعلل ظاهرة ما يسمونه بالتنويم المغنطيسي . هذه الظاهرة تُحسب معللة تمام التعليل اذا قلتَ مثلاً ان التفكير تموُّج اثيري ينبعث من دماغ مفكر في الوسط المحيط به . فاذا وجد في هذا الوسط دماغٌ آخر موافق للدماغ الاول من حيث خصائصه الاشعاعية التقط هذه التموجات وفهمها . ولذلك فالمنوّم المغنطيسي يبعث عوجات تفكيره في الاثير المحيط به والوسيط ينفعل بهذا التموج ويفهمه كما تفهم ذلك التموج الهوائي الذي تنفعل به اذناك اعني الصوت . هذه كلها نظرية جدُّ معقولة لا ينقصها شيء من حيث البناء المنطقي . ولكن هل هي حقيقة واقعية؟ هل ثمة تفكير على الاطلاق ؟ واذا كان ثمة تفكير فهل هو في الواقع تموجات اثيرية ؟ وماذا نعني بالاثير هنا ؟ وهل يلتقط دماغٌ ما تفكيرَ دماغ آخر بحيث ينفذ الى معناه ؟ هذه كلها لم تعن النظرة العلمية العتيقة لانها خلطت بين المعقول والواقع . وقد بلغ هذا الخلطُ اوجَهُ في علوم الأحياء ، فما نظريات ارسطو وبوفون ولامارك وفيزمان وغيرهم الاّ شواهد على هذا الخلط . وقد وقع داروِن نفسه ، على شدَّة حذره ودقته ، في نقص هذا العيب فيما يتعلق بآرائه في الوراثة وسننها

يمتاز التفكير العلمي الحديث بانه فصل نهائيًا بين الواقع والمعقول وحدَّد لكلٍّ نطاقاً خاصًا به من الحقيقة القصوى . فالمعقول بحث امكان الوجود والواقع بحث حقيقته . وقد يلوح الواقع في بادىء الأمر غير معقول لكن في الحقيقة كل واقع لا بدَّ وان يكون معقولاً كذلك . اما المعقول على اطلاقه فكثيراً ما لا صلة له بالواقع . والعلم بتصريره تحديداً انما هو بحث الحقيقة الواقعية ، في حين ان المعقول تتناوله الفلسفة والرياضيات . وشروط غير شروط الواقع لكن الاثنين ينسجمان في الخبرة البشرية العامة

هذه الاركان الثلاثة للنظرة العضوية القديمة كانت اول ما شغل العلم الحديث بنقدها . وعملية النقد هذه ليست غاية لذاتها بل الغرض منها تعبيد الطريق للبحث الحديث .

ولذلك فما ان استقر في ذهن العالم العلمي ان هذه الاركان فاسدة تتطلب نقداً واصلاحاً حتى وقع النقد والاصلاح بالفعل ونشأت الطريقة العضوية الحديثة باسلوبها التجريبي ونزعتها الجامعة ونشدانها الحقيقة الواقعية . ولكل اسلوب ونزعة ونشدان فلسفة ضمنية اي مجموعة من الفروض والمعاني تنطوي عليها جميعاً . فما هي الفروض والمعاني التي تنطوي عليها النظرة الحديثة للحياة والأحياء ?

تنطوي اولاً على هذا الذي اشرنا اليه عن الواقع والمعقول . إنَّ الامر الواقع فيما يختص بالحياة أنها ناحية واحدة من الكون قدكان بمقدور ذلك النطاق الأوسع ، اعني نطاق المعقول ، ان يجعلها غير ما هي عليه الآن . فما نشاهد من سنن الحياة الاساسية : كضرورة تركيب البروتوبلازم وسنن الوراثة وسنن النشوء والتنسيق العضوي : كلٌّ هذه امورٌ واقعيةٌ يجب تبيانُها وتعرّفُها بما هي عليه بالضبط . لكن ليس ثمة ، من الوجهة السابقة ، اي اطلاق او ضرورة فلسفية لوقوع هذه الامور . فقد كان بالامكان وضمن حيّز المعقول ان تقوم في سلب هذا الوجود حياة غير هذه الحياة لها نفس المسوّغ النفسي الذي لهذه الحياة . واذن نستنتج من كل هذا ان ممكنات الوجود اكثر مما نستطيع التعبير عنه من واقعياته

هذا من حيث الممكنات المنتقة للوجود . وللوجود كذلك ممكنات نسبية لها روعتها وجلالها . ذلك ان هذا النظام الذي نعرفهُ في الطبيعة الحالية لم يحقق بعدُ جميع ما يضمره هو من ممكنات وقيم ، وكل ما نشاهده في هذا الكون من نجوم وذرات وبشر ينزع الى ضروب من الوجود لا يمكننا التهكن بها الآن . ففي قدس هذا الوجود ترتع انظمة وعلاقات وتراكيب من الابداع والغنى بحيث تترنح وهي وجود جديد مستقلٌ عن هذا الوجود الذي يغمرها

خذ هذه الحياة مثلاً لذلك ، فتاريخها منذ ظهورها على هذا السيار حافل بما نحن بصدده من ممكنات هذا الكون . فالصفات التي بزغت في الحياة خلال تفتحها التاريخي ابلغ شاهد على ما يكنّه النظام الكوني الحاليّ من وفرة وغنىً . فالتفاعل الحيويّ ، والذاكرة ، والاستفادة من الخبرة ، والغريزة ، والاغتباط بالصحة والقوة ، والعاطفة ، والشعور ، والتحليل ، والمعرفة ، والوعي ، والجودة الادبية ، والحبُّ — جميع هذه تمثل وفرة ما كان مضمراً في نطفة الحياة الاولى وفي سنن هذا الكون . ولا اقصد بهذا ان بين هذه النطفة الاولى وهذه الصفات علاقةً سببيةً كاملة ، بمعنى السببية المألوف ، بل اعني ان تفاعل الحياة منذ نشأتها مع ذلك النظام الذي يحتضنها احتضاناً ، اي الطبيعة وسننها وحركاتها ، هذا التفاعل الحيوي المستمرّ انتهى الى هذه الصفات . فالحياة توازن دقيق مع الكون ، وصفات الحياة أثر هذا التوازن الدقيق

وعند النقد والتأمل الدقيقين نستطيع ان نلمح في تتابع الصفات الحيوية الذي وقع بالفعل في التاريخ نظاماً عاماً يطبع هذا التتابع بطابع يميزه له عن اي تتابع آخر . هذا النظام هو ما نعبر عنه عادة بلفظة « رقي » او « تقدم » . وقاعدة هذا الرقي هي الانتقال العام من البسيط الى المركب ومن العام الى الخاص ومن الوحدة والانفراد الى الاتحاد والائتلاف . اي ان الكون : بسننه وتركيبه : سمح لبزوغ سلسلة من الصفات الحيوية تتسق جميعاً في قاعدة عامة هي هذه القاعدة التقدمية التي وصفنا . فعند ما بزغ وعي الانسان او عاطفته او حبه او اجتماعيته لم تبزغ هذه جميعاً في عالم معاكس معادٍ لها لقيامها بل نشأت في محيط شديد العطف عليها متين الصداقة لها . او بالاحرى انها نشأت لان الكون اراد لها النشوء ، اذا صح اسناد مثل الارادة البشرية الى الكون

نخلص من هذا الى تصريحين هامين ، اولاً ان الحياة وليدة الكون ، ثانياً ان الرقي في الحياة وليد الكون كذلك

والله في هذا التصوير يصبح ذلك التركيب في صلب الكون الذي سمح بالحياة وبالرقي فيها . ان الحياة حقيقة واقعية والرقي فيها حقيقة واقعية كذلك . من اجل هذا وجب وجود تركيب خاص للكون يسمح بوقوع هاتين الحقيقتين . هذا التركيب هو الله . والله اذن حقيقة واقعية لا سبيل البتة الى التشكيك في وجوده

الست تشاهد الحياة في نفسك وفي سواك ? اليست تلوح لك وهي منتظمة في سلسلة تقدمية متواصلة ، من نقيق الضفدع الى موسيقى بيتهوفن ? كيف امكن حدوث هاتين الظاهرتين ، الحياة ورقيها ? لا بدَّ وان توفر في الكون تركيب خاص شدَّ ازرهما ولم يكتفِ بأن جعل من وقوعها امراً ممكناً بل احدث هذا الوقوع فعلاً . هذا التركيب ، هذه الخاصة الكونية : هذا الجانب من اجزاء الكون وحركاته ، هو الله

هكذا تستوي فكرة الله في فلسفة الحياة . وعلى هذا المنوال يبني الكسندر ومورغن وهوكنج ووعان فلسفتهم المشتركة في الله . فالله في نظر هؤلاء حقيقة واقعية كهذا القلم او كانت كليوبطرا لان الحياة والرقي فيها حقيقتان واقعيتان . وما لم نطعن بالحياة وبرقيها ونؤمن بانهما وهم وسراب تعذر علينا نكران وجود الله

اذا اضطررنا الى اطلاق لفظة تصف هذه النظرة الى الله فإنَّا نميل الى استعمال عبارة « النظرة الزمنية » لله ، لانها تستمد فكرة الله من تفتح معاني الحياة مع الزمن ، فهي ترى يد الله وتستشف آثاره من البزوغ العضوي المستمر لان هذا البزوغ لا بد وان ينم عن كون ذي تركيب خاص يسمح بحدوثه . والله ليس سوى هذا التركيب الذي يكفل بزوغ الحياة ورقيها

ونحن ننتهي الى النتيجة نفسها اذا تناولنا الماماً النزعة الجامعة الحديثة في دراسة الحياة

والاحياء .زعيم هذه النزعة العلامة الانجليزي الاستاذ هولداين . هذا العالم لا يرى اي معنى لفكرة الحي مجردة عن فكرة البيئة التي يتفاعل معها . فالانسان مثلاً ليس هيكلاً عظمياً محشواً اعضاء وانسجة مربوطاً بعضلات وبشرة وكفى ، وليس هذه بوظائفها وعملياتها ، بل هو جميع هذه موحّدة بينها . فالاكسجين وخصائصه جزء من فكرة « الانسان » ، كذلك الغذاء والحرارة والماء والسنن الكياوية وقشرة هذه الارض والجاذبية وكل ما يمس الانسان مساً جوهرياً . لانّ لا كيان للانسان البتة الا بتآزر هذه الجوانب من الطبيعة وتعاونها بعضها مع بعض . وعلى حدّ قول الاستاذ هولداين ان القول بان الرئتين تتنفسان الهواء لا يفرق صواباً القول بان الهواء يتنفس الرئتين . لان بين هذين الموجودين — الرئتين والهواء — صلة من الوثوق والدقة بحيث يستحيل الفصل بينها . فالانسان تركيب طبيعي لا ينحصر في جسمه فحسب بل يمتد الى جميع عوامل بيئته لان من هذه جميعاً ينزع الانسان حقيقة واقعية يغتبط لها الكون ويمكنها من الوجود والاستمرار

هذان المنوالان — المنوال الزمني والمنوال الجامعي — يستمد ان اسلوبهما في التفكير من علاقة الموجودات بعضها ببعض ومن تساندها بعضها الى بعض ، اي انهما يريان الوجود بكليته وهو جسمٌ واحدٌ محكم التنسيق مستدقّ التأثر والاحساس يرنّ بجوانبه الاربعة لايّ تغير يقع فيه ويعين نوع هذا التغير وقيمته . المنوال الواحد يرسم هذه الصورة من دراسته تاريخ الحياة ، والمنوال الآخر يرسمها من اعتباره حقيقتها الحالية . والعبارة الواحدة التي توحّد بين هاتين النظرتين هي عبارة « النظرة العضوية » فالكون بموجبها كلٌّ ذو اعضاء ينفعل بها ويفعل فيها ويتسق اتساقاً يختلف كمالاً ونقصاً باختلاف انسجام هذه الاعضاء بعضها مع بعض

وسواء انظرنا الى الحياة وهي حقيقة حالية أم حقيقة تطورية نشأت وتكاملت مع الزمن ، فانّا امام نفس النتيجة وهي ان الحياة وليدة الكون لا قيام لها بدون « ارادته » . فالله هو تلك الحقيقة الكونية التي جعلت من الحياة امراً ممكناً والتي لم تكتف بمجرد هذا الامكان بل احالته الى حقيقته الواقعية

* * *

ونحن نقرّ ان هذا النحو من تشييد فكرة الله متين ليس باليسير نقده او تبيان عيوبه . ذلك لانه يرتكن على حقيقة الحياة ووفرتها . وما قد يلوح لاول وهلة ضعفاً في هذه الفلسفة يبدو بعد النقد والتأمل قوة ومناعة . واعرف عدداً من الانتقادات يلجأ اليها التفكير التقليدي ويحسبها كفيلة بهدّ هذه الفلسفة ، لكنها جميعاً قائمة بالفعل على خطاء في تفهم ما ترمي اليه ونحن لن نحاول هنا بحث هذه الانتقادات وتبيان اوجه الضعف فيها لكنا بدورنا نود ان نشرح بايجاز نقصاً لهذه الفلسفة نحسبه نقصاً حقيقياً

لئن ظهرت هذه الفلسفة وطيدة البنيان فهي برغم ذلك لا تعدو ان تكون تركيباً ذهنياً مجرّداً قوامه التفكير الخالص بشأن الله . والله قبل ان يكون تفكيراً خالصاً يجب ان يكون خبرة داخلية تهتز بها جوارح النفس من اعماقها . في هذه الحال يعرف الله مباشرة وتقاس قيمة اية فلسفة بشأنه على ضوء هذه المعرفة المباشرة . فأما ان تقبع في ركنة وتحصر فكرك في امر وتستخرج منه فلسفة عامة فشيء واحد ، واما ان تتناول هذا الامر بالخبرة الفنية المباشرة فشيء آخر . ومتى امتزج امر من الامور امتزاجاً وافياً في خبرة الانسان سهل تفهم اسراره الذهنية . لان الذهن عندئذٍ يستضيء بالخبرة الداخلية وينتفع بها ويتخذها محكاً لموضوعاته وتصريحاته

الخبرة الواقعية تُقدّم مادة غزيرة للتفكير ، والذهن يرتبها وينظمها ، فالذهن تنظيم الخبرة وتنسيقها واذا حصرت ذهنك في دائرة حركته شحّت نفسك وظهر تفكيرك باهتاً لا لون فيه ولا غنىً واقعيٌ . كذلك اذا جعلت من حياتك انتقالاً مستمراً من خبرة الى خبرة دون ان تنتحي بنفسك هنيهة للتأمل في هذا الغنى الاختباري ولتنسيقه واستشفاف معناه تكون قد جنيت على كمال نفسك بتضحيتك جانبها الذهني الهام في سبيل جانبها الاختباري الهام ايضاً . هذان الجانبان يجب ان ينسجما ويتعاونا في الحياة الكاملة لان عمل الواحد خلق مادة التفكير وعمل الآخر تنسيق هذه المادة المعروضة . وفي نظرنا ان اهم ما ينقص فلسفة الله العصرية التشديدُ اللازمُ على الخبرة البشرية بشتىّ الوانها . فالله حقيقة يجب ان يختبرها القلب قبل ان يتناولها العقل بالنقد والتحليل . ومحالٌ ان يتعرّف العقل المجرّد جميع اسرار الله لان العقل المجرّد ليس بكل ما في الوجود . لكن لكل خبرةٍ دينية يجب ان ينتظم تفسير ذهني ينيرُها ويستخلص جميع معانيها وافتراضاتها

* * *

الدين اليوم في كل الارض بحاجة ماسة الى ثورة فكرية تتناول اسس التفكير فيه . واهم هذه الاسس حقيقة الله . فالبحث الجديد يجب ان يعرض لفكرة الله بالنقد الصريح والتحليل النزيه حتى يستقيم التفكير عن الله مع نزعات الحياة الجديدة ومراميها . ويقيننا ان ضرر اهمال الله لا يقل عن ضرر اساءة التفكير فيه ، لان فكرة الله تضمر اعظم ما عرفت البشرية من نعمٍ وخيراتٍ وقيمٍ ، ولانه في تصورها الصحيح خلاص البشرية الوحيد من عبوديتها واضطراباتها وشرورها . وويل دائم للبشرية ان هي اخطأت التفكير في الله . اما اذا عرفت السبيل الى التفكير العلمي الحديث بشأن الله وقيمته فابواب الخير والنعيم مفتوحة امامها . وشرطنا هذا السبيل ان يؤخذ القلب بخبرة الله المباشرة والعقل بالتفكير المجرّد فيه . عندئذٍ تنفتح امام العقل والقلب ابواب لم تسمع بها اذنٌ ولم يحلم بها شاعر ، وعندئذ يعرف الانسان حقيقة معناه في الوجود

شارل مالك